كما يراها غيرنا

رحلة باكرة

للأستاذ عبد اللطيف النشار

كان السائح الأمريكي « بايارد تيلور » شاعراً كاتباً ذا ولع بالأسفار وقد ولد في « بنسيلفانيا » عام ١٨٢٥ . وألف كتبا كثيرة في وصف رحلاته منها كتاب يصف فيه رحلة إلى السودان ومصر ومنه نقتطف هذه القطعة

وقد عين سفيراً للولايات المتحدة في برلين وعاش مدة طويلة هناك وتوفي عام ١٨٧٨ وهو يشغل هذا المنصب الرفيع

قال :

من بين الموظفين المصريين الذين عرفتهم في الخرطوم سيد كان قد نفاه إليها والي مصر . وهذا السيد المنفي هو رفاعة رافع الطهطاوي ، وهو من ذوي الثقافة العالية والذكاء المتوقد ، وقد أحزنه كل الحزن إبعاده عن وطنه وعن أهله

ذلك إني أوجه النقد إلى أشخاص معينين ، لأن البحث العلمي فوق الأشخاص . وما كان نقدي إلا في سبيل الصالح العام وهو موجه إلى سياسة عامة أنتجت نتائج سيئة هامة ؛ خصوصاً أننا نعلم أن الأشخاص يذهبون ويزولون ، أما السياسة العامة فبقاؤها أدوم وأثرها أعظم في الأبناء والأحفاد ، بل وفي مرافق البلاد . ويكفيني أن يشاركني في ذلك مندوبو مصر في مؤتمر الاتحاد العالمي لجمعيات التربية في جنيف سنة ١٩٢٩ في تقريرهم عن هذا المؤتمر الذي رأسه وزارة المعارف سنة ١٩٣٦ وقد جاء فيه (ص ٣٥) في سياق الكلام عن المعرض الذي أقيم في هذا المؤتمر ما يأتي : « وإني أقول آسفا إننا لم نعان في الحياة أشد من مرارة المقارنة بين ما نحن عليه من تأخير وجمود وما وصلت إليه تلك الأمم المتمدينة الناهضة . وأمر من ذلك أن نعد أجيالا طوالا لابد من أن تمضي قبل أن نلحق بهم مالم يهم أولياء الأمور فينا بثورة على القديم ، ونهضة تحطم الأغلال العتيقة ، وتقلب نظام التربية الحديثة عندنا من أساسه فتدب الروح الجديدة في التعليم من كل نواحيه » «يتبع» عبد الحميد فهمي مطر

إلى هذا البلد السيء الجو الذي عاش فيه الما شديداً بسبب الحمى المنتشرة فيه

وكان لا يعرف إلى أي مدي تطول مدة نفيه . وقد قضى إلى الوقت الذي التقيته فيه عامين في المنفى خاضعاً لرقابة شديدة تفرض عليه ألاَّ يتسلم خطاباً إلا عن طريق الحكومة التي تفض رسائله لتعرف مابها . وقد امتنعتُ عليه بهذه الوسيلة صلته بأصدقائه في مصر ممن يخشون عواقب تلك الرقابة . ولم يكن في وسعي أن أعرف السبب الذي نفي من أجله ، وقد يكون هو نفسه غير عالم بسبب هذا النفي

سفير الولايات المتحدة في بيت رفاعة رافع الطهطاوي

وليس في البلاد الشرقية انتخابات عامة ولا للشعوب الشرقية رأي في اختيار حكامها ، فكل من بها من الحكام يسومهم الولاة وفق أهوائهم ولا يستطيعون الاحتفاظ بمناصبهم إلا كما يريد الولاة . وقد يدفع التنافس أو الحسد واحداً من الباشوات إلى إهلاك خصم له بريء غافل عن سبب الكيد . وربما كان سبب الكيد لا يعدو أن يكون أحدهم طامعاً في منصب الآخر فيوغر عليه صدر الوالي حتى ينفيه

وقد اكتسب هذا السيد صدق وعطف العميقين في الليالي التي كان يقضي فيها السهرة معي ومع الفاضل الأمريكي . وكان يطمئن إلى مجلسنا فيشكو لنا ما يعانيه من الظلم . أما حين نلتقي به في منزل أي موظف مصري فقد كان يحرص على عدم الخوض في هذا الموضوع خشية أن تُنقل عنه أحاديثه إلى الحكومة

ولما كنت أجنبياً غريباً فانه لم يخطر ببالي قط أن في وسعي أداء أية خدمة لرفاعه باشا[1] . وكنت مزمعاً العودة إلى بلادي

(١) اعتاد هذا المؤلف أن يلقب رفاعه رافع بلقب باشا والذي أعرفه أنه « بك »

عن طريق مصر . ولكن معرفتي باللغة العربية محدودة وإلمامي قليل بعاداتها ونظمها . وفضلا عن ذلك فقد كنت أرجو ألاّ أطيل بها المكث إلا ريثما أعبرها إلى الشاطىء

على أنني كنت أسير وإياه في الطريق في ليلة من ليالي الأخيرة في السودان فقال لي همساً إن لديه حديثاً يريد أن يسره إليّ

ومع أن الليلة كانت مقمرة فقد كان معنا خادم وطني يحمل المشعل، فأمره الباشا بأن ينصرف ، فاختفى عن نظرنا بعد قليل في منعطف ضيق من منعطفات الطريق، وكان الصمت مخيماً لولا أصوات الرياح إذ تتخلل أطراف النخيل البارزة رؤوسها فوق أسوار الحدائق

وقال الباشا وهو يمسك بيدي : « لنا أن نتحدث الآن بضع دقائق دون أن يسمع أحد حديثنا ولي رجاء لديك »

قلت : « على الرحب إن كان في وسعي »

فقال: « إنك لن تتكلف مشقة ما، ولكنك ستؤدي لي مع ذلك خدمة جليلة . أرجو أن تحمل عني خطابين إلى مصر، أحدهما إلى نجلي في طهطا ، والآخر إلى المستر موري القنصل الانكليزي في القاهرة ، ولا أستطيع ائتمان التجار المصريين على هاتين الرسالتين ، فلو فضتا وقرئتا لطال أمد نفي في هذه البلاد سنين عدة . أما إذا تفضلت بإيصالهما فإن أصدقائي بمصر سيعرفون السبيل إلى معاونتي وربما تمكنوا من إعادتي إلى وطني

فوعدته بأن أسلم الخطابين إلى صاحبيهما يداً بيد . فبدا الانشراح على وجه الباشا وودعني عند باب القنصل الأمريكي

وبعد أيام قليلة استأنفت رحلتي ، وكان من أيسر الأمور أن أتصل برفاعة باشا وأن يسلمني الخطابين دون أن يتنبه أحد إلى ذلك ، ووضعتهما في حافظتي مع سائر أوراقي ولم أتحدث في هذا الشأن مع أي إنسان في الخرطوم

وكانت رحلتي إلى مصر طويلة شاقة يستغرق مني وصفها أياماً لو حاولت ذلك ، فقد قضيت في السفر شهرين قبل أن أتمكن من تسليم رسالة الباشا إلى ابنه المقيم في طهطا بصعيد مصر على بعد بضعة أميال من مجري النيل . ويحيط بها سهل جميل يغمره ماء النيل مرة في كل عام

وبعد تحريات قليلة وصلت إلى منزل رفاعة باشا ولكن لم يؤذن لي بالدخول لأن السيدات المصريات لا يسمح لهن باستقبال الأجانب . وكان بالمنزل قاعة واسعة مفتوح بابها على الطريق ، فأجلست فيها ريثما تذهب جارية سوداء لتأتي بابن الباشا من المكتب؛ وجلس معي في تلك القاعة خادمي الأمين . وقد تسامع أهل البلد أثناء وجودي في الانتظار أني آت من الخرطوم وأني أعرف الباشا فأتوا من كل حدب ليسألوني عنه ، وكانوا جميعاً في نهاية الأدب والود ، واغتبطوا لما طمأنتهم عليه كما لو كانوا جميعاً من أفراد أسرته

وبعد ربع ساعة عادت الجارية يتبعها ابن الباشا ومعلمه في المكتب ، وكان هذا المعلم قد صرف جميع الطلبة وأغلق المكتب وجاء ليسمع أخبار الباشا .

كان عمر هذا الصبي أحد عشر عاماً ولكنه أطول قامة ممن هم في مثل عمره . وقد ابتسم حين رآني ابتسامة عذبة، ولولا إلمامي ببعض الألمام بعادات هذا الشعب لمددت إليه يدي وأجلسته على ركبتي وطوقت خصره بذراعي وتحدثت إليه بغير تكلف ، ولكني رأيت أن أصبر حتى أرى كيف يكون ـ لكه نحوي .

حياني في وقار وجلال كما لو كان رجلا له سمت وأبهة ؛ ثم تناول يدي فأدناها من قلبه ثم من شفتيه ثم من جبينه ؛ ثم اتخذ مجلسه فوق ديوان مال بجانبي .

وأعاد تحيتي وهو في مجلسه وصفق ثلاثاً ، فجاءت جارية أمرها بأن تعد لي القهوة ثم قال : « كيف صحتك ياصاحب السعادة ؟ » فأجبته : « بخير والحمد لله »

قال : « هل لديكم أوامر لي ؟ مروا تطاعوا ! »

فقلت : « أشكر لطفك، وليس لدي إلا تحيات أحملها إليك من أبيك الباشا ، وخطاب منه وعدته بأن أسلمه إليك يداً بيد »

ومدت إليه بالكتاب فوضعه على قلبه ثم قبله وفض غلافه. وبعد قراءته التفت إليّ وقد تورد وجنتاه وسطعت عيناه وقال : « أتأذنون لي ياصاحب السعادة بأن أسألكم هل معكم كتاب آخر ؟ »

قلت : « نعم ولكني سأسلمه لصاحبه كذلك يداً بيد »

قال : « أصبت . ومتى تصلون إلى القاهرة ؟ » فقلت : « الأمر يتوقف على حالة الرياح ولكني أظن أن المدة لا تتجاوز سبعة أيام »

وأسر الصبي بكلمات إلى معلمه ، وبدا على وجهيهما الاغتباط . . ولم يعد كلانا إلى التحدث في هذا الموضوع .

وجيء بشراب لا شيء فيه سوى عصير الليمون المحلى وماء الورد . ثم جيء بالرمان وسألني الصبي أن أشرفه بالبقاء لديه سائر اليوم

ولولا أنني كنت أرى وجهه وهو يحادثني لظننت أني أحادث رجلا، فقد كان هذا الصغير من الجلال وقوة الأمر كعظماء الرجال

وكان الناس حولنا كأنهم معتادون مشاهدة هذا النضوج السابق لأوانه في الأطفال. وكنت مضطراً إلى أن أتخذ حيالهمن الاحتشام والكلفة كما لو كان هو حاكم المدينة . على أن ذلك لم ينتقص من محبتي؛ إياه وودت لو عرفت موضوع حديثهمع معلمه. ولست أشك في أنهما كانا يحاولان تدبيراً لاعادة الباشا من منفاه

وبعد ساعتين أوثلاث ساعات عدت إلى السفينة التي جرت بي في بطء إلى الشمال .

نهض الصبي عند نهوضي ومشى بجانبي إلى آخر حدود المدينة والناس على أثرنا في نظام وعند وصولي إلى السفينة حياني مودعاً مثل تحيته إياي مسلماً وقال : « اسأل الله أن يجعل رحلتكم سعيدة ياصاحب السعادة »

وقد بدالي أن منظر استقباله ووداعه والوقت الذي قضيته وإياه — لقد بدا لي أن كل ذلك كان قطعة من ألف ليلة، فاني إن نسيت شيئاً فلا أنسى تلك الذكرى الجميلة البارزة . أما بالنسبة لهذا الشعب فما من شك أن هذه الحالة هي حالتهم العادية التي تتكرر كل يوم

عبد اللطيف النشار

جورجيـــاس

او البيان

لافلاطونه

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٣ —

« تنزل « جورجياس » من آثار « أفلاطون » منزلة الشرف ، لأنها أجل محاوراته وأكملها وأجدرها جميعاً بأن تكون « إنجيلا » للفلسفة ! »

« رينوفييه »

«إنما تحيا الأخلاق الفاضلة دائما وتنتصر لأنها أقوى وأقدر من جيش المهاجمين ! »

« جورجياس : أفلاطون »

الأشخاص

١ — سقراط : بطل المحاورة : « ط »

٢ — جورجياس : السفسطائي : « ج »

٣ — شيريفين : صديق سقراط : « ش »

٤ — بولوس : تلميذ جورجياس : « ب »

٥ — كاليكليس : الأثيني : « ك »[1]

ط — (مجيبا بولوس الذي اعترف بأن الطاغي ظالم) ومادام الأمر كذلك فلن يكون أحدهما أسعد من الآخر ، لا هذا الذي نجح بظلم وصار طاغياً ، ولا ذلك الذي أسلم نفسه للعقاب ، لأنه لا يستطيع أحد الشقيين أن يكون أسعد من أخيه ! ! ولكن أشقاهما — مع ذلك — هو من فر من العقاب وصار طاغياً ،

(١) رأينا « بولوس » في العدد الماضي يخرج « سقراط » بمثلين شهيرين أحدهما مثل « أرشليوس » الذي رأى السعادة في قتل من هم أحق منه بالعرش ثم اغتصاب الملك وإشباع الشهوات ، والآخر مثل ذلك « الظالم » الذي أمسكنا به وعذبناه ثم أحرقناه حيا كيما نحول بينه وبين الظلم من ناحية ، وكيما نحقق له سعادة العقاب كما يدعي سقراط من ناحية أخرى . وسنرى اليوم كيف يمهد سقراط لنقد ما أراده « بولوس » من هذين المثلين المحرجين اللذين يصلحان لقياس كثير من حوادث حياتنا الراهنة إليهما

« للعرب »